في حاشيات عند بعض اهلها على تعريبه لكتاب جالينوس الأعضاء الآلة. منه نسخة اخرى لدى الاديب جرجس بك صفا تاريخها سنة ٤٢٠ ٥ ووجدنا لهُ في مكتبة بغداد العمومية مجموع سبع مقالات طبيَّة وفي نسخة اخرى رسالتهُ في تدبير المولودين ثمّ معاني بقراط في المولودين لثانية اشهر (لها بقيَّة)

الخدَع الحربيَّة في الحرب الكونية

بقلم حضرة الاب رفائيل نخله اليسوعي

لقد ارتنا الحرب الكبرى من ضروب العجائب والغرائب ما لم يتوقعهُ متوقع بل ما لم يحلم بهِ حالم. ولا غرو فان المتحاربين — وهم ارقى الشعوب حضارةً — لم يتركوا فرعاً من العلوم العصرية الّا وقد سخَّروهُ لادارة رحى الهيجاء. وطحن العدوّ الى ان يجعلوه هباءً منثوراً. بل لم يقفوا على وسيلة من وسائل المراوغة الّا وقد تذرَّعوا بها للاشاة مناوئيهم في اقرب وقت وعن اقرب طريق.

لعمري ان مهارتهم وتفنُّنهم في استنباط وسائط القتل والتدمير قد زادا على تاريخ تلك الحرب المشؤومة آلافاً من اسوإ صحائفه واشدّها سواداً. على ان في هذه الصحائف المخطوطة بسواد المهج عبرةً للمعتبر تريهِ غريب مقدرة العقل البشريّ على درء الاخطار المهددة ومقابلة ذوائع الهلاك المستخفية بمثلها غرضاً لا نوعاً. ذلك ما حدانا الى تحبير هذه المقالة ونشر بضع صحائف مطويَّة من سفر الحرب الكونيَّة عسى ان يرتاح القراء الكرام الى قراءتها.

الباب الاول: بعض مكايد الاسطول الانكليزي

معلومٌ لدى القاصي والداني ان مئات الغوّاصات الالمانية الضاربة ليلاً ونهاراً في

طول البحار الاوربيَّة وعرضها والمدمّرة لمئات من سفن الحلفاء باسرع من طرفة عين كانت خطرًا دائمًا يتهدّد كيانهم بل سيفًا مسلولًا على حياتهم القوميَّة . فلا بدع أن قاموا وقعدوا وأرغوا وأزبدوا لا قرار لهم حتى ينجوا من آفاتها ولو ببذل النفوس والنفائس . ولاسيما ان الاسطول الالماني بعد فشلهِ في معركة يوتلند لزم السكون بجوار مدينة كيل وهو في حرز حريز من كل غائلة مفاجئة . فلم يتجاسر الى ان وضعت الحرب اوزارها على الخروج من مكمنهِ لمبارزة الاسطول الانكليزي وكان يرتعب من سطوته ولا ارتعاب الزعنفة الرعديد من الجبَّار الصنديد

فوالحالة هذه لم يرَ الحلفاء — وفي مقدّمتهم الانكليز — محيصاً من اعداد العُدَّة وشحذ القريحة لدرء خطر الغوّاصات الالمانيَّة بل لمحقها ان امكن وقد اوشكت ان تحوّل قعر بحر الشمال والاطلنتيك والمتوسط الى مدفن هائل لسُفُنهم ومجّارتهم البسلاء المستميتين فداء عن الوطن العزيز . وهاك بعض ما ابتكره الدهاء الانكليزي من المكايد الدهشة لبلوغ غايتهِ المنشودة

١ المدرعة الكاذبة

غنيٌّ عن البيان ان المدرّعات الملقَّبة بدريدنوط (Dreadnought) هي اضخم البوارج الانكليزية بل اقدرها واهولها . ولذلك صنع الانكليز لمراوغة أتباع غليوم الثاني عدَّة سفن على شكل الدريدنوط في ظاهرها لا ينقصها سوى العواري والمداخن لتشبهها شبهاً تامًّا . فاذا مرّت غوّاصةٌ للعدوّ باحدى تلك المدرّعات الكاذبة ، ايقنت انها مدرّعة بحصنة ضربتها المدافع الالمانيَّة فدمّرت اعلى اجزائها ولم تُوفَّق الى تدمير جسمها الغليظ المنيع . فكانت في الحال ترميها بانواع القذائف من طوربيلات وقنابل فتذهب كل هذه ادراج الرياح

وما ادراك يا صاح ماهيَّة المدرعة الكاذبة ؟ هي مَطَارٌ اي مستودع للطيَّارات طافٍ على وجه اليمّ يحوي في بواطنهِ نحو عشرين طيَّارة وعلى ظهره سطحٌ بطول زهاء خمسين مترًا تُرفع اليهِ الطيَّارات بآلة رفع الانقال ثم تجري من احد طرفيه الى الآخر على دواليبها فتبلغ السرعة اللازمة لتحلّق في الفضاء . وما ايسر ما كان عليها حينئذٍ ان تُلقي على الغوّاصة المخدوعة قنبلةً منفجرة تدخلها في خبر كان !

اما سرعة تلك المدرّعات فيُقضى منها العجب حيث ادركت نحو ٢٦ عقدة أمتي زهاء ٤٨ كيلومترًا في الساعة ، وهي سرعة كثير من القطارات حتى في اوربة . وكانت هذه السفن الغريبة لا تغوص في المياه الى عمق يتجاوز ثلاثة امتار فيسهل عليها والحالة هذه الدخول في كلّ الموانئ

— لمّا حدثت الهدنة في اواسط تشرين الثاني ١٩١٨ كانت احدى هذه المدرّعات الكاذبة بل الدواهي الدهياء — واسمها الهائجة (Furious) على أهبة الذهاب الى ما يجاور برلين من السواحل الالمانية . وقصدُها ان تُطلق هناك طيّارات تحلّق فوق عاصمة الاعداء فتلقي القنابل على مبانيها والرعب في افئدة نحو ثلاثة ملايين من قاطنيها

ومن غريب ما اتفق لاحدى تلك المدرّعات الغشاشة وهي حديثة النشأة أنّ قد رآها ربيئةُ سفينةٍ منارية (bateau - phare) راسية بقربة من شواطئ اسكتلندة الشرقيّة . فأبرقت فورًا الى اولي الربط والحلّ انها عاينت «دريدنوطًا» خرّبت مدافعُ العدوّ كلّ مشارفه من صوارٍ ومداخن وابراج بل دمّرت اجهزة تلغرافه اللاسلكي بدليل كونه لم يُجز جواباً على البرقيات الموجهة اليه . فانتشر ذلك النبأ الرائع في كلّ انحاء بريطانية العظمى انتشار النار في البارود . ونسجت احدى جرائد غلاسكو بُردةَ مقالةٍ ضافية الاذيال وصفت فيها المعركة البحرية الهائلة التي كان الدريدنوط المشار اليه احدى ضحاياها ! ؟ فأسرعت اذ ذاك السلطة العسكرية ونشرت بلاغاً رسميًّا لتكذيب هذه الاشاعة التي تمخّضت بها مخيّلة الصحافي الاسكتلندي، فكان صوتها كالصارخ في الصحراء . وقد بلغ هَرَجُ الناس ومَرَجُهم مبلغاً عظيماً فتقاطر الالوف من كل طبقات الشعب الى الموانئ الانكليزية لمشاهدة الاسطول البريطاني العائد من برلن حاملٍ على قولهم وألوية الظفر المبين خافقة في اعلى صواريه . ولم يهدأ بال الجموع المتألبة حتى صدر بلاغ رسمي آخر مقرونٌ بصورة شمسيّة تمثل المدرّعة الكاذبة . فحدّث عن دهش الجماهير ولا حرج !

٢ صائدة الغواصات

حاول الالمان اثناء الحرب ضرْب نطاقٍ حيّ ومتحرّك من الغوّاصات حول

فرنسة والجزر البريطانية لالقائها في شرّ مجاعة بقطع كلّ الصلات البحرية اللازمة لتموّنها . فخاب ذلك المسعى كل الخيبة بفضل نفرٍ من اولي الافكار الثاقبة والعزائم الماضية وفي طليعتهم الدكتور شركو (Charcot) الفرنسي الذي هو من اول منظّمي مناهضة الغوّاصات الالمانية . كان قضى حصّةً وافرة من حياته في خوض البحار القبطية وارتيادها وأحاط باطراف فنّ صيد الحيتان . فعرف عن خبرة طويلة ان الحوت اذا ولّى هارباً من صيّاده بمنتهى السرعة أحدثَ على سطح المياه انتفاخاً يجاريه متجهاً بطبيعة الامور الى وُجهة سيره الوشيك

فعلى هذه الملاحظة البسيطة استند الدكتور شركو فوضع خطة لمحاربة الغواصات الالمانيّة . ولمّا درى اقطاب البحرية الانكليزية بمداد تلك الخطة استقدموه الى بلادهم وحوّلوا تحت ادارته باخرةً للصيد الى سفينة شديدة السرعة كاملة العُدّة لمطاردة الغوّاصات وتدميرها . ثم تطوّر رسم هذه السفينة وتحسّن تدريجاً حتى بلغ اوج الكمال في الطرز الذي أطلق عليه الانكليز اسم سفينة قاف (Q-boat) وهو آية الآيات في بابه حيث انه في واقع الامر سفينة في داخل اخرى كما سيتضح لك في البيان التالي

٣ سفينة في سفينة

كان الغرضُ من ابتكار الطرز الجديد « لصائدة الغوّاصات » جعلَ التحسينات العديدة التي ادخلها الالمان على غوّاصتهم في حكم العدم . ومن اشهر تلك التحسينات احاطةُ تلك السفن بدرع سميك وتجهيزها بمدافع بعيدة المرمى وبمناشير مركوزة في مقدّمها وقادرة على قطع الاشراك الحديدية الحائلة دون سيرها في عمق البحار . اما السفينة «قاف» فكان الانكليز يستخدمون لصنعها بعض البواخر الثاقلة للفحم ولا يغيّرون شيئاً من ظواهرها وذلك لخاتلة العدوّ . لكنّ داخلها كان يُحوَّل اتمّ تحويل . فتُبدل عوارض الخشب بمثلها من الفولاذ ، والسطح الخشبي بصفائح الحديد ويقسَّم قعرُ الباخرة الى عدّة غرف مستقلّة لا يجد الماء سبيلاً للتسرّب من احداها الى الاخرة . امّا جوانب السفينة فكانت تُبطَّن داخلاً ببطانة كثيفة من اللبّاد لتخفيف صدمات القذائف الصادرة من الغوّاصات . ومطاوي القلوس المبثوثة شذر مذر على ظهر

الباخرة كانت محض مخابئ تحتجب تحتها اجهزةُ تلغرافٍ لاسلكي من اكمل طرز . والآلة الرافعة للاثقال المركزة على الظهر ايضاً لم تكن سوى مكمنٍ لاحد الضبّاط البحريين فيلاحظ من داخله بواسطة ثقبين حركات الغوّاصة الالمانيّة المهاجمة فيلقي الاوامر المناسبة على القائمين باطلاق المدافع الواقعة في اسفل السفينة . في حين الاطلاق كانت جوانب الباخرة تنفتح على شكل ابواب ذات رزّة اقفيّة وذلك بمجرّد الضغط على زرّ كهربائي . وبجوار المدافع آلاتٌ ترفع اليها القذائف المكدسة في قعر البارجة ولكل سفينة « قاف » ثلاثة مدافع : اثنان من عيار نحو مئة ميلمتر والثالث من عيار يفوق ١٥٠ ميلمترًا

اما طريقة استخدام تلك البوارج الجهنمية فان فيها من العجب ما فيها . كان من ديدنها هدم الارساء مرّتين متواليتين في اي مرفأ ولجتهُ وذلك خشيةً من مراقبة الجواسيس الالمان . فالسفينة « قاف » تنطلق بوسقها الفحمي من احدى الموانئ المجاورة لكرديف ونيوكاسل وتتوغل في كبد البحر حيث تلتقي باحدى النسافات الانكليزية فتستمدّ منها الذخائر وتقف على مواقع الغواصات الالمانية فتسرع نحو هدفه للايقاع بها . ومتى قربت المسافة بين البارجتين تتظاهر السفينة الانكليزية بالرُعب الشديد وتنفتل مدبرةً كانها تريد الهرب من مأزق هائل . فيوقن قبطانُ الغوّاصة الالمانيّة بالظفر الذريع ويُعرض عن رمي العدو بطوربيل ذي ثمن باهظ ، ولاسيما انهُ في مأمن من هجماته لا يشك بالقلبة ، فيدنو الى خصمه بمشية القوي المتسلّح الساطي على ضعيفٍ أعزل ثم يُلقي عن كتبٍ قنبلةً رخيصة القيمة كافيةً في نظره للاشاة العدو . حينذاك تنفتح فجأة جوانبُ السفينة المهاجمة وتظهر فوّه مدافعها المريعة وتُطر على الغوّاصة الخرقاء وبلًا من القذائف الضخمة وربّما اجترأت بقنبلة واحدة او باثنتين لتدميرها ولاسيما ان المدفعيين (الطوبجيّة) كانوا من احذق الرُماة لا يخطئون مرمًى . وكانت الاوامر العالية فوق ذلك تقضي بعدم مواقعتهم للعدو الّا اذا ثبت لهم النجاح والفوز التام

ومن غريب الاتفاقات ان سفن « القاف » لم تناجز أيّة غواصة المانيّة القتال الّا دمّرتها . وكفى شاهدًا على ذلك ان المانية رغماً من بثّها آلافاً من العيون الراصدة في

طول بلاد الحلفاء وعرضها قد جهلت حتى اواخر تشرين الثاني ١٩١٨ وجود تلك السفن الماردة

هاك على سبيل خاتمة لمقالتنا رواية مأثرتين جليلتين من مئات مآثر تلك السفن قد انطلقت احداها واسمها سَفُلك كُسْت (Suffolk Coast) بقصد مفاجأة غواصة لوحظت بقرب سواحل نيوكاسل فرماها العدوّ عند الغسق وعلى مسافة اقلّ من الاربعمائة متر بطوربيل قبل او بعد كل القائمين بأدارة الآلات البخارية . عندئذٍ طفت الغواصة الظافرة على وجه المياه لتدور حول فريستها وتشمت بخرابها . بل جلس قائدها على كرسيّه واوقد لفافة تبغ وهو يعلل النفس بمشاهدة انكسار الدّ الاعداء . فاذا بقنبلة أُطلقت من الباخرة الانكليزية فذهبت برأس القائد للتشامخ . وقتلتها اخرى جعلت البحارة الالمان هباء منثوراً فلم تترك لهم اثراً بعد عين . وعقبتها ثالثة اخترقت الغواصة من جانب الى جانب فاغرقتها في برهة ثانيتين !

اما المأثرة الثانية فقد شرُفت السفينةَ المسماة نُرْثَمْبَرْلَنْد أصيبت هذه ايضاً بالطوربيل وجُرح قبطانها جرحاً خطراً فضغط بيديه على ثُغرة ذلك الجرح البليغ المزّق لبطنه وبقي في مركزه يُصدر الاوامر اللازمة لمتابعة القتال . صبَر صبْر الابطال على مضض الالم وحالما طفت الغوّاصة أمرَ باطلاق القنابل فكانت الاولى ضربةً قاضية على العدو . على ان الطوربيل الالماني عطّل البارجة الانكليزية فباتت على وشك الغرق هي ايضاً . فالحّ البحّارة على القبطان الهمام ليرضى بالنزول معهم في احد زوارق النجاة . فأبى وقال همساً وعلى ثغره ابتسام الابطال حين يبيعون الارواح في سبيل الوطن: «ما الجدوى ؟ انه لمن المحال ان أدرك البرّ وانا في قيد الحياة . لقد قتُّ بالواجب ولذلك لموت والفرح ملْ فؤادي ! »

*

ذلك بعض ما رأينا اطلاع القارئ عليه من مكايد الاسطول الانكليزي ضدّ الالمان وفيه عبرةٌ بل عِبرٌ للمتروّي . على ان جعبة الحيل الحربيّة لا يفنى بها احصاء وقد آن الاوان لنكفّ منها ونعرض على نظر الجمهور احدى وسائل الحرب الكبرى .

التي تشبّث بها المتحاربون وهي من الطفها وادقها ألا وهي حمام الزاجل(١ وهو الهادي فنبيّن طرق استعماله المتنوعة وما يقتضيه تدبيرها من التأهب الطويل السير

الباب الثاني : استخدام حمام الزاجل في الجيش الفرنسوي

لهذا الاستخدام اوجه عديدة فمن المناسب إفراد فصل وجيز لكل منها

١ نقل الرسائل المجلة

فلنفرض ان برج الحمام في باريس وان المُراد بعث الرسائل من مدينة ڤردون الى العاصمة . ففي هذه القرائن يُنقل الحمام الى ڤردون وتُربط الرسالة برجل الحمامة اليمنى فتُطلق وتطير كالبرق الخاطف الى برجها الباريسي بدون ادنى تردُّد في وجهة سيرها ولو نُقلت من العاصمة الى ڤردون في صندوق مُغلق . اما الرسائل المبعوثة من باريس الى ڤردون فيحملها حمامٌ برجُهُ في المدينة الاخيرة وقد نُقل من الاولى اليها وقس على ذلك في بقية الاحوال

فسبحان الخلّاق العظيم القدير الذي منح ذلك الطير الداجن غريزةً حيّرت منذ القدم ألباب العلماء ولم يستطع العلم العصري رغماً من فتوحاته العجيبة ان يجهّز سفنهُ وطيّاراته بآلة تُجاري تلك الغريزة في حسن تأدية وظيفتها الخطيرة

ولكل حمامة حربيّة بريديّة عدَدٌ خاصٌ محفور على خاتم من الالومينيوم يحيط برجلها اليسرى . وبازائه تاريخ ميلادها واشارةٌ مميّزة لبرجها . ولئلا تضيع تلك العلامات المفيدة تراها مجدَّدةً على احدى الريشات الكبرى للجناح الايمن مع زيادة حرفٍ يدلّ على جنس الطير الذكر او الانثى . ثم يُشار الى المركز الحربي الذي جُعل الحمام في خدمته بلونٍ معلوم يُصبغ به رأسه او كتفهُ . اخيراً يُعرف الخطّ البريدي من لون خاتم ثانٍ من مادّة البلولونيد مُحدقٍ خلافاً للاول بالرجل اليمنى

اما الرسائل فانها تُبعث على شكل صور شمسيّة او بهيئة مخطوطات واليك بيان ذلك . ففي الطريقة الفوتغرافية تُرسَل جليدةٌ سلبيّة طولها نحو خمسة سنتيمترات في عرض اربعة فتظهر فيها الكتابة بيضاء في محيطٍ اسود . ومن اللازم طلاؤها

(١ اطلب ما كتبهُ الاديب ميشال افندي سماحة عن حمام الزاجل ووصفهِ في المشرق (٦ [١٩٠٣]: ٨٢٥–٨٢٨) وتجد هناك صورتهُ

بالكلوديون (collodion) لحفظها سالمةً من الرطوبة . ومتى بلغ بها الحمام المحلّ المقصود تُنشر فيه على صفيحة زجاجيّة وتُقرأ اما بنظّارة مكبّرة او بتكبير الصورة على حاجز من النسيج بواسطة آلة شبيهة بالسينما

امّا الرسائل المخطوطة فتُكتب على ورق مخصوص طوله ١١ سنتيمترًا في عرض ٧س ثم يُطوى ثلاث طيّات ويُلفّ لفًّا مضغوطاً على شكل اسطوانة بطول زهاء ٣٥ ميلمترًا ليس الّا

والرسائل كلها مخطوطةً كانت او فوتغرافيةً تودع في اسطوانة من الالومينيوم مربوطة برجل الحمام اليمنى(١ . على ان هذه الطريقة تعرّض الرسائل لنظّارات العدوّ . ولذلك يُعدَل عنها في غالب الاحيان الى جعل الكتابات في داخل ريشة إوزّ يسهل اخفاؤها بين ريش زِمكّ الطير اي ذنبه

التصوير السري

لعمري ان من فنون الاختراع العصري لسحرًا ! فمن كان يرجّم إمكان استخدام حمام الزاجل لأخذ صوَر شمسيّة من اعالي الجوّ بينما الطير ينهب الفضاء ؟ قد صنع هذه المعجزة مرةً اولى من نحو خمس عشرة سنة الدكتور نُيبْرُونّر (Neubronner) بقصد الحصول على صور بعض الجهات التي يقطعها الحمام في شوطه . ولمّا كان ابتكارُه كثير الجدوى في العمليّات الحربيّة نال من حكومة وطنه الالماني مددًا ماليًّا تمكّن به من مواصلة تجاربه . وأسفرت عن اختراع جهاز فوتغرافي لا يزيد وزنه عن خمسة وسبعين غراماً ويوسعه ان يأخذ في اثناء الطيران عدّة صور بغاية الوضوح

ومن العجب العجاب ان الدكتور نيبرونّر ابتكر واسطةً بسيطة تمكّن الجهاز المذكور من رسم صور الحصون ومستودعات الذخائر وما شاكلها من الابنية الحربية في حين مروره من فوقها . امّا الواسطة لبلوغ ذلك المأرب المنيع فبسيطة وهي عبارة عن ظرف من الكاوتشوك بشكل كمثرى يُفرغ شيئاً فشيئاً اثناء الطيران مؤونتُه من الهواء . ومتى كمل الفراغ تحركت احدى ادوات الجهاز الفوتغرافي وأُخذت

١) يُروى عن ملوك الدول العربية انهم كانوا يردمون رسائل حمام الزاجل في علَب ذهبية معلقة بعنق الطير وفتاحها شديد الحقة . وكان الخليفة مستخصّاً بنفسه فتح تلك العلب

الصورة المطلوبة . من البديهي انه يجب حساب معدّل سرعة الحمام (١) والمسافة بين محلّ انطلاقه والعمارة المراد تصويرها وسرعة تفريغ الهواء من ظرف الكاوتشوك بحيث يتمّ هذا التفريغ عند تحليق الطائر فوق محل التصوير . كل هذه الحسابات هي من الغرابة بمكان بصرف النظر عن غرابة جهاز فوتغرافي شديد الدقة والخفة في آن واحد

٣ حمام الزاجل والطيارون

كثيراً ما يحتاج الطيارون بعد معاينة مواقع العدو من علُ الى ايقاف اركان جيشهم عليها . اجل ان في وسعهم استخدام التلغراف اللاسلكي لهذه الغاية على انه بغير مأمن من مباغتات اجهزة العدوّ اللاسلكية كما لا يخفى على المطّلعين . امّا ارسال الانباء على جناح حمام الزاجل فغير مشوب بتلك الشائبة . وان يكن اقلّ سرعةً فلا بأس بذلك لقصر البون الفاصل بين الطيّارين والقوّاد في كثير من الاحوال . بيد ان اطلاق الحمام من الطيّارة في غضون طيرانها في طبقات الجو العالية كان من بضع سنوات يُعَدّ من المستحيلات . كان الخبراء قد حاولوا قبل ذلك اطلاقها من المناطيد فخابت مساعيهم اذ كان الحمام المُفلت من سلته يطير الى اعلى المنطاد ويستقر هناك شبه السلطان المتربع على عرشه فلا يرضى من مستقرّه حراكاً

عندئذٍ تذرع ارباب المناطيد بالحيلة الآتية . وهي ان يُدهوروا الحمام بغاية الشدّة ورأسهُ متّجه الى اسفل . فمتى انحدر على هذا النمط وقطع نحو مائة وخمسين متراً ، وهو كالحجر الساقط ، ينشر جناحيه ويُباشر الطيران نحو برجه . على انه من العسير سلوك هذا المنهج في الطيّارات نظراً الى ضيق المكان . ولذلك قد عدل القومندان الفرنسوي كورنو (Cornu) عن تلك الطريقة الى تركيز انبوب عمودي بطول نحو مترين وعرض كافٍ لمرور الحمام على احد جوانب الطيارة . فيكفي القاء الطير في داخل الانبوب ورأسه متجه الى تحت . فمتى خرج منه وافاق من دواره بعد بضع ثوانٍ ينشر جناحيه ويتّجه نحو مركزه

(١) انه يبلغ نحو عشرين متراً في الثانية أعني نحو ٧٢ كيلومتراً في الساعة وهي سرعة القطارات المعجّلة (express) .

٤ حمام الزاجل في الخنادق

معلوم من الماضي والداني ان الحرب العوان انتقلت في غد معركة المرن من المازق الى الخنادق . فالتزم القوّاد بعد مئات كيلومترات من اسلاك التلفون حول الخنادق ثم بينها وبين المواقع الحربيّة المجاورة . على ان مدافع العدو كثيراً ما كانت تجعل كلّ هذه العُدَد في حكم العدم ، وذلك لدى امسّ الحاجة اليها . عندئذ كان يُستعاض عنها بحمام الزاجل المحفوظ في غور الخنادق بسلالٍ مخصوصة . ومن الغريب انه كان حاملاً في كثير من الظروف على جناحه الرسالة المنبئة بهاجمة العدوّ او تخريب الاسلاك التلفونية فمتى انفتح سجنه وافلت من سلّته ، بانفجار قنبلة مثلاً ، طار فوراً الى بيته الواقع بجوار القوّاد واطلعهم باقرب وسيلة على بليّة امر مرؤوسيهم . ومن النادر ان يُصاب بقذائف الاعداء في غضون طيرانه وذلك بسبب شدّة سرعته وصغر حجمه

***

قد اشرنا في الصحائف السابقة الى بعض طرق استخدام حمام الزاجل في الحرب الكونية ولو فُسح لنا المجال لأتينا بالزيادة للمستزيد . تلك الخدم الجليلة قام بها الحمام خير قيام في تلك الايام العصيبة ، وكان الطرفان المتعاديان شديدي الحرص على الاستئثار بها . منذ آب ١٩١٤ اي منذ دارت رحى الهيجاء وشنّت المانية الغارة على بلجيكة طار كثير من الحمام الفرنسي الموجود في مدينتي لياج ونامور الى ابراجه بفرنسة حاملاً على جناحه انباء شديدة الخطورة ولاسيما بعد انقطاع العلائق التلغرافية والتلفونية في عدّة اصقاع . وقد بلغ حنق الالمان على حمام فرنسة مبلغاً فاحشاً فاعلنوا في البلاد المحتلّة انهم يحكمون بالاعدام على كل من يحفظ عنده تلك الطيور

ولم يكن وعيدهم تهديداً محضاً فانهم القوا القبض على نفر من الفرنسيين الالزاسيّين ورموهم بالرصاص لتقضهم تلك الاوامر الصارمة . ولم يقفوا عند هذا الحدّ بل ساموا مدينة أُستَنْد البلجيكية غرامة مليون مَرْك لمجرد كونهم عثروا فيها على حمامة ذات مَرْسة مربوطة برجلها ! ولمّا اكتشفوا في بلجيكة ابراجاً عديدة للحمام وضعوا يدهم عليها

على ان الالمان كانوا قبل اندلاع نيران الحرب في اتمّ الاهبة بخصوص حمام الزاجل الحربي . فمنذ كانون الثاني ١٩١٤ كانت بروجهُ تُحصى بالعشرات بل بالمئات على طول الحدود الفاصلة بين بروسية والامبراطوريّة الروسيّة البائدة . ومنذ اوائل نيسان ١٩١٤ جعلت الحكومة عددًا طائلًا من هذه الطيور بين ايدي قوّاد فيالق المشاة والفرسان ولمّا عجزت الطيّارات البريدية الالمانيّة عن القيام بوظيفتها على تخوم پولونية بسبب معاكسة الطيّارين الروس نائب منابها الحمامُ فزالت كل العقبات في زمن يسير

لعمري من كان يتوقّع جليل خدم حمام الزاجل في الحروب العصرية فانّها نابت غير مرّة عن المواصلات التلغرافية والتلفونية السلكيّة واللّاسلكية ، هي حكمة الله تبارك وتعالى يُفسح لأوضع خلائقه محلًّا في حياة البشر لتمّ سنّة التعاون المنتظم التي سنّها لخلقه

***

ولا يزعمنّ القارئ ان خِدَم حمام الزاجل تُنال بدون عناء او بيسير منهُ فالحقيقة وذلك الزعم الواهي لعلى طرفي نقيض ! فانّ تثقيف تلك الطيور امرٌ عسير لا محيص منه لاقناء غريزتها الطبيعية . كما ان الطفل ، وان ذكيّ الفؤاد ، مفتقرٌ الى عناية كثير من المهذبين والاساتذة بل الى عنائهم المتواصل ليبلغ اشدّه جسماً وعقلًا

فلنضرب مثلًا بفرنسة : كان لوزارتها الحربية في ڤوجيرار (Vaugirard) من ضواحي باريس برج فسيح يأوي اليه في سني الحرب نحو ثمانمائة من تلك الطيور . كل سقوفه وحيطانه والاوكار الخشبيّة مطلية بالكلس وارضيته مفروشة بالرمل الناعم ومغسولة غسلًا متواترًا . وكان بفرنسة ما خلا ابراج الدولة في ١٩١٣ زهاء مائة الف من حمام الزاجل وهي ملك الشركات او الافراد بيد انّ للحكومة حقّ الاستئثار بها طول وقت الحرب ، فهي بازاء حمام الحكومة بمثابة الرديف بالنسبة الى بقيّة الجيش ، فتأمل في تلك المقايسة الغريبة !

امّا تثقيف الحمام فبطيء وصعب . فبادئ بدء يجول الطير جولات قصيرة بجوار برجه منطلقًا منه وآنبًا اليه من تلقاء نفسه . ثم ينقله شخصٌ ما الى مسافة خمسة كيلومترات ويُطلق من هناك فيطير قافلًا الى نزله . وتُزاد المسافة يومًا فيومًا الى ان تبلغ بعد شهرين نحو ٣٥٠ كيلومترًا . فكل طائر تجور قواه دون تلك التجارب

الصارمة يُسقط من جدول الحمام الحربي فلا يبقى فيه سوى فحول الطيور . فكان عدد هؤلاء نحو مائة في برج ڤوجيرار اثناء ١٩١٣ . وهاك احدى مآثرهم الغرّاء :

في ٨ حزيران ١٩١٢ وُضع اربعون منها في سلّة فنُقلت الى آجان (Agen) برفقة الفين من مجانسيها وهي ملك احدى الشركات . ثم أُطلقت كلها في آن واحد من آجان في اليوم التالي . فقفلَ الطيرُ الفائز في هذا السباق الى بيته في العاصمة بظرف سبع ساعات وسبع واربعين دقيقة قاطعاً مسافة نحو ٦٥٠ كيلومترًا ، بسرعة نحو ٨٤ كيلومترًا في الساعة ، بدون ادنى توقف اثناء شوطه العجيب . وفي اثناء الساعة التابعة لميعاد وصوله لحقه في باريس ثلاثة وعشرون من مُساكنيه بڤوجيرار فيكون أبطأهم قد طار بسرعة نحو ٧٥ كيلومترًا في الساعة

فبفضل ذلك التثقيف وتلك السباقات اضحى الحمام يجتاز مسافة خمسمائة كيلومتر ونيّف كأنها جولةٌ حول برجه ! بل قد توصّل الخبراء بهذا الفن الغريب الى جعل الحمام يعود الى وكره في ذات الليل ، بشرط الّا يكون حالكاً ، وذلك عن بعد نحو مائة كيلومتر

***

قد ذكرنا في الصحائف الاولى لهذه المقالة بعض مكايد الاسطول الانكليزي لحق الغوّاصات الالمانيّة وتطرّقنا من ذلك البحث المحيّر للعقول الى وصف ضروب استخدام فرنسة حمام الزاجل لمعالجة بعض ما التته الحرب من العراقيل في المواصلات البريدية وغيرها . ولئن ظهر لأوّل وهلة بونٌ شاسع بين المبحثين فهما في عين المتبصر متجانسان قلباً ولو مختلفان قالباً . دليلُ ذلك انهما يكشفان لطالب لباب المهمات دون قشرها ما وهب الالهُ العظيمُ العقلَ البشري من عجيب المقدرة على معالجة صعاب الامور ودرء اشدّ الاخطار بالوسائط السهلة الفعّالة . فليت الانسان يقابل سخاء مولاه بعدم استخدام تلك الموهبة السامية في غير سبيل العدل والرحمة ويا ليته لم يجد قيد شعرة من تلك الجادّة القويمة الرحيبة اثناء سنين الحرب العصيبة